دراسة اللغة العربية وآدابها

للدكتور محمـــد مندور

لا أستطيع أن أصور للقارئ مبلغ دهشتي عند ما وصلت إلى باريس وسألت في السربون عن ليسانس الأدب الفرنسي فأُخبرت أن هذا شيء لا وجود له . فأنت لا تستطيع أن تحصل من الجامعات الفرنسية على ليسانس في آدابهم وإنما هناك شيء اسمه الليسانس الكلاسيكي ، وهو يتكون من أربع شهادات عليا كل منها منفصلة عن الأخرى تمام الانفصال . ولك أن تبدأ بالتقدم لأيها شئت وفي أي سنة تريد بعد تمضيتك للسنة الأولى بالجامعة . وهذه الشهادات هي : شهادة اللغة اليونانية القديمة وآدابها، وشهادة اللغة اللاتينية وآدابها، وشهادة اللغة الفرنسية وآدابها ؛ وأخيراً شهادة فقه هـذه اللغات النحوي وإذن فلا يستطيع أن ينال الليسانس ، أي إجازة التدريس في الأدب إلا من يعرف اللغتين اليونانية واللاتينية وفقههما اللغوي، وذلك إلى جوار اللغة الفرنسية وأدبهـا وفقهها وفي الجامعة تلقى الدروس والمحاضرات التي تُعد لكل من هذه الشهادات ، ولك أن تحضر منها ما تريد ، وتتقدم إلى الامتحان عند ما تحس أنك قد وصلت إلى المستوى المطلوب وهو مستوى رفيع جداً لا تصل إليه هوناً حتى إن قليلاً جداً من الأجانب من يستطيع أن يجازف فينافس الفرنسيين في هذا الميدان العويص ؛ وذلك لأن الفرنسيين لا يتقدمون إليه إلا بعد إعداد طويل بمدارسهم الثانوية حيث يدرسون تلك اللغات جميعاً دراسة متينة مفصلة . وكاتب هذا المقال يستطيع أن يتحدث عن يقين عن جدية هذه الدراسات وقد تفلت فيها أظفاره . ولقد يدهش القارئ عند ما نخبره أن الامتحان في شهادة الآداب الفرنسية شيء بالغ البساطة في صورته بالغ المشقة في جوهره . فالامتحان التحريري عبارة عن سؤال واحد تعالجه في أربع ساعات ، فإذا نجحت تقدمت إلى الامتحان الشفوي أمام ثلاث لجان : اثنتان منها لقراءة وشرح نصين أحدهما قديم والآخر حديث ، وأمام اللجنة الثالثة تُسأل في مسألة من نظريات الأدب أو مدارسه أو كتابه . وهم لا يتطلبون منك في التحريري أن تدل على تحصيل فحسب ، بل لابد أن تثبت إلى جانب ذلك مقدرة حقيقية على النقد الشخصي والفهم العميق . ثم لا بد فوق كل شيء من أن تملك هبة الأسلوب وجماله ، وذلك لإيمانهم أنه لا بد أن تكون إلى حد ما أديباً لتصلح مدرساً للأدب ، وعندهم أن الأدب من المجالات التي لا يغني فيها شيء عن مواهب النفس

غادرت مصر بعد أن درّست الأدب العربي بجامعتها وعدت إلى مصر فدرّست الأدب العربي بجامعتها ، ولقد كنت منذ عودتي شديد التبرم بمناهجنا وطرق فهمنا لآدابنا القومية . ولقد جاهدت في سبيل إصلاحها ما استطعت حتى تركت الجامعة ، ولكن تركي لها لن يمنعني أن أواصل الجهاد في خارجها . وذلك لإيماني بأن دراسة الأدب هي المدرسة التي يتخرج منها قادة الرأي في البلاد . فهي مدرسة الثقافة العامة ومدرسة فن الكتابة

وما أريد أن تعترض سبيلنا نزعات مقرضة فنُحارب بتعصب لمناهج الغرب التي تكونا بين أحضانها . ولي أمل كبير في أن يوليني القارئ الثقة حيث أنني قد بلوت مناهجنا ومناهجهم في نفسي وأطلت فيها التفكير بعد أن استطعت أن أستقلي بالحكم؛ ومن واجبنا أن نأخذ الخير حيث نجده

وفي دراستنا للغة العربية وآدابها عيبان كبيران ، يشق على من لم يُدرس اللغات والآداب الأخرى أن يدركهما أو يجد لها علاجاً . ولا بد إذا أُريد القضاء عليهما من إعداد جيل جديد من الذين تثقفوا بأوروبا للنهوض بتلك المهمة الشاقة ، مهمة تدريس اللغة العربية وآدابها ؛ وبغير ذلك لن تكون أية محاولة غير ضجة عقيمة ، وهذا رأي يؤمن به من كبار أساتذتنا المصريين من استطاع منهم لرحابة عقله وتخلصه من الهـوى الشخصي أن يدرك الحقائق في شجاعة ونبل

أما العيب الأول فهو فهم معنى الأدب : فالأدب مقصور عندنا على الشعر والنثر الفني عند العرب . ومن الملاحظ أن الشعر

قد غلبت عليه ابتداء من القرن الثالث الهجرى روح المحاكاة حتى إن التجديد فيه لم يعد إلا بمقدار . وأما النثر فإنك إذا قصرته على الفنى منه لم تخرج إلا بمحصول ضئيل : خطب ورسائل ومقامات وتوقيعات وأمثال . ولقد كان ظهور النثر متأخراً ، وكان عمر الجيد منه وهو النثر المرسل الخالى من الصنعة المتكلفة قصيراً إذ لم يلبث أن طغى البديع ابتداء من القرن الرابع فجرد الكتابة من صدق الإحساس وجوهر الفكر . والإحساس والفكر هما المادة التى إذا خلت منها كتابة فقدت الكثير من قيمتها . ويالبت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، فمعنى الأدب حتى على النحو الضيق الذى ذكرنا قد تغير فى عصرنا الحاضر ؛ وذلك لأن العرب لم يعرفوا فى الحقيقة غير الشعر الغنائى والنثر القصير الباع ، وأما الأدب المسرحى وأدب القصة فذلك ما لا نستطيع أن نقول على نحو جدى إنهم قد عرفوه . فالبون شاسع بين أنواع الحوار التى خلفوها من أمثال حوار وفود العرب عند كسرى وغيرها وبين المسرحية بالمعنى الحديث . وكذلك الأمر فى البون بين أيام العرب وما شابهها من قصص وبين القصة بالمعنى المعروف اليوم . وها نحن منذ اتصالنا بالغرب أخذنا نكتب القصص والمسرحيات ، وهذا يضعنا فى موضع فريد بين الأمم ، فالجامعات فى أوروبا لا تتناول عادة بالدراسة الأحياء من الكتاب . وفى فرنسا كلها لا يدرس الأدب المعاصر فيما أعلم ، ولا تعطى عن دراسته درجة علمية إلا فى جامعة واحدة هى جامعة استراسبورج ، وأما السربون فتقف مناهجها عند أواخر القرن التاسع عشر . ولو أننا فى مصر حذونا حذوهم كما نفعل الآن لكان موقفنا عجيباً . فسيخرج الطالب وهو لا يعرف عن أدب القصة وأدب المسرحية ، وأصولها ونقدها شيئاً . ومعنى ذلك هو أن الجامعة لن تساعد على خلق بيئة أدبية ورأى عام أدبى ، ينمو فيهما أدبنا الحديث ، ويتجه وجهة جدية تساير تيارات الأدب العالمى ، وتدخلنا فى ثنايا . وأمعن من ذلك فى الدلالة ما نلاحظه من أن الشعر الغنائى ، بل وكافة أنواع الشعر حتى المسرحى منه ، آخذ فى التقهقر أمام النثر فى كافة بقاع العالم حتى لأذكر أنه لم يعد فى فرنسا كلها غير مجلة واحدة متخصصة بالشعر هى مجلة « اجدرازيل » Yggdrasill وهى مجلة شهرية . وعلى العكس من ذلك النثر ، فقد احتل موضع الصدارة . ومن بين فنون النثر كلها أصبح للقصة بأنواعها المكان الأول . ومع ذلك فجامعتنا لا تزال عنايتها بالشعر فوق عنايتها بالنثر ، وهذا أمر يفسره ما ذكرنا من قصرها لمعنى النثر على الفنى منه . وباستطاعة القارئ أن يتناول أى كتاب فى تاريخ أى أدب أجنبى كالأدب الفرنسى أو الإنجليزى أو الألمانى ، وأن يقلب فهرسه ليجد فصولاً ممتعة عن التاريخ والمؤرخين والفلسفة والفلاسفة ، وعن كتاب الأخلاق والاجتماع والباحثين فى فلسفة العلوم . ونحن لدينا أمثال هؤلاء : لدينا المؤرخون والفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام ، وفقهاء التشريع ، ورجال الأخلاق والاجتماع . فلماذا لا نوسع من معنى الأدب كما يفعل الغربيون فندخل دراسة هؤلاء الكتاب جميعاً فى مناهجنا وندرسهم بروح العلم الحديثة ، ونتقد مواضع الضعف عندهم وسبل الكمال على ضوء ما وصل إليه الغرب ، وبذلك يخرج طالبنا بمادة فكرية لها قيمتها بدلاً من قصره على الدراسات اللفظية التى نأخذه بها اليوم؟

ولكننا إذا أردنا أن نفهم الأدب بهذا المعنى الواسع ، وإذا أردنا أن ندخل فيه أدبنا المعاصر الذى تأخذ ألوانه عن الآداب الغربية ، تبين عندئذ صدق ما قلناه من قبل من أنه لن يستطيع عندئذ الاستقلال بتدريسه إلا من ثقف ثقافة غربية وتشبع بمناهج الغرب على نحو واسع متين

والعيب الثانى قائم فى منهج الدراسة فهو لا يزال المنهج التقريرى كما عرفته القرون الوسطى مع أن مناهج الدراسة فى كافة الجامعات اليوم قد أصبحت المناهج التاريخية ، ومن واجبنا أن نسلك مسلكهم فنوفر على أنفسنا قروناً من الزمان ، ولو أننا فعلنا لتغيرت دراساتنا كلها رأساً على عقب ، فالنحو عندئذ لن ندرسه على أساس أنه معايير للصحة والخطأ ، فتلك دراسة مكانها فى المدارس الثانوية وإنما نتناوله كتطور تاريخى للغة منذ أصولها السامية إلى أن انتهت اليوم باللهجات العامية ، وهذه

دراسة لا تعرف الخطأ والصواب وإنما تعرف التحول الطبيعي الخاضع لاعتبارات عضوية واجتماعية ونفسية . والبلاغة علم سنحذفه أصلا من برامجنا كما حذفته جميع الجامعات وتحل محلها دراسة الأساليب وتاريخ تكوينها والتمييز بين اتجاهات الكتاب المختلفين وتحديد خصائصهم الروحية باعتبار أن الأسلوب صورة للملكات الرجل لا وسيلة من وسائل الأداء اللفظي فحسب ... وسوف نقطن عندئذ إلى شيء لم نسمع بوجوده بعد في جامعتنا وهو تاريخ اللغة ، ففي كل الجامعات تجد كراسي لأساتذة كبار يضطلعون بهذه المهمة الشاقة ولقد أتيح لي أن أتابع سنوات دراسة الأستاذ فرديناند برينو لتاريخ اللغة الفرنسية بالسربون . وكم كان يشجيني أن أستمع إلى هذا الشيخ الجليل وهو يقص تاريخ لغته ، فإذا به يكشف لنا بهذا التاريخ عن العقلية الفرنسية كلها وقد رسبت على طول القرون في مفردات اللغة وتراكيبها ولقد كان يخيل إلى عندئذ أن هذا الرجل لا يلقي إلينا بعلم ، وإنما يقص ذكريات حياته الخاصة ، وذلك لطول معاشرته لتلك اللغة وإلفه لها ولقد أودع الرجل — رحمه الله — محصول عمره فيما يقرب من عشرين مجلداً في كل مجلد ما يقرب من ألف صفحة من القطع الكبير ، وأجمع الفرنسيون على أن هذا الشيخ الوقور قد أقام لفرنسا بكتابه هذا عن « تاريخ اللغة الفرنسية » تمثال مجد لن يفنى أبد الدهر . وكم كان رائعاً يوم وفاته أن تحمل جثته إلى ساحة السربون ويأتي الوزراء ورجال الدولة ومعهم فصائل من الجيش وموسيقاه ليحيوا رفاته الظاهرة في مشهد وطني رسمي كان من أكبر ما أثر في نفسي إذ كشف عن عظمة هذه الشعوب التي تعرف كيف تقدس الفكر البشري .

والمنهج التاريخي كما سيجدد تدريسنا للغة ، سيجدد أيضاً تدريسنا للأدب ، فالأدب كما نريد أن نفهمه هو مستودع الحضارة ، وما أظن أننا نستطيع أن نفهم الحضارة العربية فهماً صحيحاً ما لم نكشف عن أصولها ومصادرها ، ولك أن تقلب الرأي كيفما شئت فستنتهي إلى نتيجة حتمية هي أن الثقافة العربية مزيج من عناصر ثلاثة : العنصر العبري ، والعنصر الفارسي ، والعنصر اليوناني . ففي القرآن وفي الاسلام مالا يحصى من مبادىء التوراة وقصص التوراة وأصول التوراة التشريعية ، وفي الحضارة العباسية الكثير من وسائل الحياة الفارسية ببذخها ومظاهرها المادية ، بل وتياراتها الأخلاقية والفكرية في بعض الأحايين ، وأما اليونان فأظن أن تأثيرهم في الفلسفة الاسلامية والمنطق الاسلامي وعلم الكلام بل وفي العلوم اللغوية كالنحو والبلاغة وغيرها أوضح من أن يذكر .

والآن لو وسمنا من معنى الأدب وزدنا من عنايتنا بالنثر وأدخلنا في دراستنا إلى جوار الأدب القديم الأدب المعاصر ، ولو أصلحنا مناهجنا فجعلناها تاريخية كيف تظن أننا نستطيع عملياً أن ننظم تلك الدراسة . أليس من الخير لنا أن نأخذ بالنظام الفرنسي فلا نقيد دراسة الأدب العربي بسنين بل نجعله شهادات يحضر الطلبة ما يريدون منه ، حتى إذا أحسوا بنضوجهم تقدموا إلى الامتحان ؟ ونوع هذه الشهادات أمرها واضح فهي لا يمكن أن تكون إلا : ١ — شهادة اللغة العبرية وآدابها . ٢ — شهادة اللغة الفارسية وآدابها . ٣ — شهادة اللغة اليونانية وآدابها . ٤ — شهادة اللغة العربية وآدابها . وبذلك يخرج الطالب مثقفاً ثقافة حقيقية تمكنه من أن يفهم التراث العربي فهماً صحيحاً وأن يستطيع مقارنته بغيره من الآداب ..

ومن البين أنه يجب أن يصلح نظام التعليم في المدارس الثانوية بحيث توجد به فروع تعد إعداداً صحيحاً لهذا النوع من الدراسة الجامعية بحيث يخرج الطالب ولديه العناصر الأساسية لمواصلة دراسته .

ولست أجهل ما في مثل هذه الدراسة من مشقة ، ولكن الأوروبيين يعالجون مثلها في دراسة أصول آدابهم اللاتينية واليونانية ، ولقد تغلبوا على تلك الصعوبات ، فلما ذا يقعد بنا نحن الكسل عن مواجهة الطرق الجدية والسير في السبل الصحيحة ؟

محمد مندور
المحامي